

حرف الخاء

١٣٥ - الخياط الزرهونى.

حاله: ولد بمدشر العامة من جبل زرهون، ثم رحل لفاس فقرأ القرآن بالروايات العشر وأتقن حفظها، وقرأ الخزرجية والقلصادى والمنية، ومهر فى الحساب والفرائض والتاريخ وأيام الناس وسياسة الملوك، ثم اتخذ مكتبا لتعليم الصبيان بحومة زقاق الحجر من مدينة فاس، ثم رشحه جارى الحومة المذكورة لمباشرة زمام ما يقبضه من اللوازم، ثم صار يباشر زمامات سائر المكلفين بقبض الأداءات البلدية بسائر حومات فاس، وعددها إذ ذاك أربعة وعشرون حومة وبجميع حسابات ذلك.

فقربه واصطفاه إليه عامل فاس إذ ذاك من قبل السلطان سيدنا الجد مولانا إسماعيل وهو أبو على الروسى، فولاه على الجميع حتى لم يبق لأحد معه فى تلك الجهة من الأمر شىء، حتى صار يضرب المغارم على من يستمع للوعاظ والقصاص بمسجد القرويين، ويوقع القبض على من لم يؤد ما وظف عليه من المغرم، فترك الناس لذلك الإتيان للمسجد والاستماع للوراقين.

ثم لما أراد الله أقول طالع ظلمه، وإراحة المسلمين من بغيه، اتفق أن قدم لفاس اسى المؤذن مسامر مولانا الجد السلطان مولانا إسماعيل لزيارة إبتته فى مرض أصابها، فدخل لمسجد القرويين بقصد سماع كتاب الحلية من القلص، فوجد المسجد فارغا لا يسمع من الوعاظ إلا النزر القليل من الناس، فبحث عن السبب فأخبر بفعل المترجم فأسرهما فى نفسه.

ولما رجع لمكناس وجلس مع السلطان على عادته سألته عن أحوال الناس

وعن الأسعار والرخاء وتأمين البلاد والطرق وعمارة المساجد وقراءة العلم وأهل الدين والخير وسيرة عماله فيهم، فأخبره عن ذلك، إلى أن بلغ لخبر القرويين فأخبره بفعل الخياط المذكور مترجما فيها.

فاغتاظ لذلك الفعل السيئ الشنيع وأصدر أمره حالا لعامله أبى على الروسى مضمناه: وليتك أمر المسلمين لتنظر إليهم بعين الشفقة والرحمة وتسعى فى المصالح فإذا بك أطلقت عليهم فى كل حومة سفيها ابن زنا يأكل لحومهم ويمص دماءهم ومن سلمه الله منه يتبعه للمسجد الأعظم ويقبض عليه فيه ويسجنه، فإن كان هذا فى علمك فسترى إن شاء الله منى ما تكره، وإن لم يكن عن إذكك فعلى بهؤلاء، فإن تركت منهم أحدا فإنك مكانه وكلكم راع والكل مسئول عن رعيته. فقبض القائد المذكور على جميعهم امثالا للأمر العالى وجعل لهم الأغلال والسلاسل إلا المترجم تفلت واستجار بحرم مولانا إدريس رضى الله عنه، فكلف العسس بالقبض عليه عندما يخرج لقضاء حاجة الإنسان، فقبض عليه بالكنف، وفتحوا فى أحد جدرانهم نقبا أخرجوه منه فغل وقيد ولحق بإخوانه، وسار بالجميع العامل المذكور، فلما مثلوا بين يديه أمر بضرب أعناقهم ردعا لأمثالهم وإراحة للمسلمين منهم، وضمت أموالهم لبيت مال المسلمين، وأمر السلطان العامل أبا على بأن لا يزيد على جاريتين أحدهما على اللمطيين والآخر على الأندلسيين، وأمر السلطان أن لا يعطى للجارى سوى موزونتين، ولجارى الحبس سوى موزونة، ولعون الشرع سوى نصف موزونة، فمن زاد على ذلك ضربت عنقه، وبسبب ذلك اطمأنت البلاد والعباد، وانطفأت نيران ذوى الجور والفساد.

وفاته: قتل بمكناس صبرا عام خمسة أو أربعة وعشرين ومائة وألف.

١٣٦- الخياط الخياطى من عقب الولى الصالح سيدى عبد الله الخياط، دفن
جبل زرهون.

حاله: من أهل الخير والصلاح والعناية والنجاح. والرعاية والفلاح. مشار
إليه بالولاية والفضل، متبرك به معتقد أظهر الله على يده كرامات وخوارق عادات.
الآخذون عنه: منهم أبو حفص الشريف سيدى عمر بن أحمد العراقى
المتوفى سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف.

وفاته: توفى أوائل القرن الثالث عشر بفاس، ودفن بإزاء سيدى عبد السلام
التواتى بمقابلة من درب أهل تادلا.

١٣٧- خنائة بنت الشيخ الأكبر الأشهر بكار بن على بن عبد الله المغافرى
السيدة المباركة زوج سيدنا الجد الأعظم مولانا إسماعيل سلطان
المغرب.

حالتها: فقيهة عالمة أدبية دينة من أصرح العرب نسبا وأجلهم حسبا وأعرقهم
مجدا وفخرا، وأعزهم جانبا، وأرفعهم قدرا من صميم قبائل المغافرة، وهم من
ظهر حسان من عرب اليمن وأصل اليمانية من قحطان على ما تقرر عند علماء
الأنساب النقاد.

قال فى حقها الشيخ محمد بن على بن فضل الحسينى الشافعى الطبرى إمام
المقام الإبراهيمى ما لفظه: ثمرة الشيوخ المعبرين المنتخبين من أكرم سلالة. وأفلاذ
أكباد العلماء المتغذين بلبان الجلالة. مغارس طابت فى ربى المجد فألقت على
الخلف معدن السودود وكييمياء السعادة. وعنصر الحمد ومفرق السيادة. الملكة خنائة
بنت المرحوم المبرور الشيخ بكار المغافرى زوجة المرحوم المقدس مولانا السلطان

١٣٧ - من مصادر ترجمتها: نشر المثنى فى موسوعة أعلام المغرب ١١٥٥/٦.

إسماعيل أعلى الله مقامه فى الجنان ورفع لهذه الملكة أعلام السيادة على مر الزمان .

وقال أبو عبد الله الوزير الشرقى الإسحاقى فى رحلته التى ألفها بمناسبة سفره إلى الحج فى معية صاحبة الترجمة ما نصه : فما نعلم واحدة من الحرائر التى دخلت دار الخلافة من أزواج مولانا السلطان مولانا إسماعيل رحمه الله تشبه هذه السيدة ولا تدانيها همة وصيانة ، وعفافا ورزانة ، وحصانة عقل ومثانة دين ، فهى من المسلمات المؤمنات القاتنات المستجمعات للأوصاف التى أعد الله لهن عليها مغفرة وأجرا عظيما .

وكان لها كلام ورأى وتدبير مع مولانا أمير المؤمنين رحمه الله ومشاورة فى بعض أمور الرعية ، وكانت له وزيرة صدق وبطانة خير ، تأمره بالخير وتحرضه عليه وتتوسط فى حوائج الناس ويقصد بابها أهل الحياء والحشمة وذوو الحاجات وكانت فى ذلك ركنا من الأركان جزاها الله بالخير .

رحلت إلى الحج وزيارة خير الأنام مع حفيدها سيدى محمد بن عبد الله وكان خروجها من دار الخلافة بمكناسة الزيتون بعد صلاة الجمعة الحادية عشرة جمادى الثانية عام ثلاثة وأربعين ومائة وألف ، وهى السنة الرابعة من إمارة ولدها السلطان مولاي عبد الله ، وقد بلغ عدد ما زودها به ولدها المذكور من الدراهم بقصد التوسعة على أهل الحرمين الشريفين مائة ألف دينار كما قاله حفيدها العلامة الثبت أبو محمد عبد السلام بن محمد بن عبد الله فى مؤلفه ، درة السلوك وريحانة العلماء والملوك .

وكان خروجها للحج فى أُبهة من أبهات الملك كبيرة . وأسباب من أسبابه أثيرة . وكان مبيتها على الربوة المشرفة على وادى ويسلين حيث ضربت لها هنالك القباب الملونة ، التى جللت الأرض وملأت الأعين منظرا وبهاء وكثرة أمتعة



كتاب السيدة خنثة بنت بكار لأهل وجدة وعليه طابعها

وأكدش ودواب وعبيد وخدم وطواشية، وهم الذين يلون القباب ونصبها ومباشرتها والحاشية أهل الحرس من وراء ذلك على بعد، ومن الغد نهضت نهوض يمن وإجلال وواصلت المسير إلى أن خيمت على ضفة وادى النجا فباتت هنالك والعناية تقدمها. والرعاية تخدمها.

ومن الغد حلت بدار الملك من فاس، وذلك قرب الظهر فأقامت بها فى انتظار اجتماع وفد الحاج، وفى يوم الخميس خامس عشرى جمادى الثانية بارحت فاسا على أحسن حال. وأجمل احتفال.

وكان مخيمها بولجة العسال على عدوة وادى سبو من العدو الشرقية، جرت العادة بنزول ركب الحجاج بها يوم انفصاله عن فاس، وأقامت به يوم الجمعة لانتظار اجتماع بقية الركب.

وفى عشية الجمعة نفسها خرج ولد صاحبة الترجمة السلطان مولانا عبد الله فى أعيان جيشه وذوى الحشيات من وجهاء دولته لوداعها، وبعد أدائه ما يناسب من مناسك البرور رجع لحضرته الفاسية، وكان شيخ الركب إذ ذاك الحاج عبد الخالق عديل، وعند إسفار يوم السبت أقلع الركب مرتحلا والمترجمة فى مقدمته مع خاصتها وحاشيتها وواصلوا السير يومهم إلى أن خيموا عشيته بضفة وادى اناون من بلاد الحياينة بالمحل المعد لنزول الركب كل سنة المعروف بسبت بوجابر، وهنالك تلقتهم قواد القبيلة المذكورة بكل حفاوة وإجلال، وقاموا بواجب الضيافة كما يلزم أتم قيام، فباتوا فى اطمئنان وأمان، ومن الغد ارتحلوا وواصلوا السير إلى أن وصلوا المحل المعروف بالملاعب، فخيّموا به وضربت قباب صاحبة الترجمة مع حفيديها على عقبة بنى فكاره.

ومن الغد خيموا بتازا وكان وصولهم إليها وقت الزوال وأقاموا بها يومين كاملين ثم ارتحلوا ثانى رجب وعبروا وادى بوالاجراف ومروا بالبلد المسمى

بالفحامة، واتصل مسيرهم إلى أن وصلوا وادى القطف فنزلوا به، ثم وادى ملوية، ثم تافراطه من قبيلة الأحلاف، ثم فم بزور، ثم المريجات، ثم وادى الشارف، ثم المنقوب، ثم أبيار السلطان، ثم بوالدروس، ثم جنان لصطم وهو شجرات مجتمعات كهيئة الجنان وليست به، ثم بالغفر عن يمين جبل عتتر، ثم بوهاد الظهر، ثم أصبحوا بعين الحسيني فأقاموا بها يومهم حتى استقى الناس ما يكفيهم من الماء لمرحلتين.

ثم ارتحلوا وابتوا قرب القصيعات، ثم نزلوا بعين الحجر ثم المشربة آخر منازل الظهر، ثم النخيل، ثم الأمشط الأحمر، ثم عين ماضى، ثم الحميضة، ثم على مقربة من عبد المجيد، ثم التوميات، ثم سيدى خالد، ثم أسفل الغيث، ثم بأطراف الزاب ملجأ ملوك بنى زيان ومعتصمهم حين يضايقهم بنو مرين عن دار مملكتهم تلمسان، ثم بسكرة بظاهر البلد وأقاموا بها يومين، ثم وادى الناموس، ثم غمران، ثم توز، ثم الحامه، ثم قابس ومنها الجرف المقابل لجزيرة جربة، ثم حمادة بن قردمان، ثم شوشة، ثم الزوارات الغربية، ثم زواغة، ثم قردادش، ثم طرابلس.

قال الوزير الشرقى الإسحاقى فى رحلته: لما حلوا بطرابلس خرج ولد صاحب البلد وحاكمه أحمد باشا فى لمة من أصحابه مع أهل البلد رجالا ونساء حفاة فى الطريق، وعلى السطوح مظهرين الفرح والسرور بولد سيدنا نصره الله وأمه وبوفد الحجاج، وأخرج مدافع كبارا سلاما على ولد السلطان نصره الله على عادة أهل البحر فى التسليم والتوديع بالمدافع.

واحتفل ولد سيدنا نصره الله سيدى محمد أصلحه الله للدخول لهذا البلد فيمن معه من الوصفان عبيد البخارى نفع الله به فتناولوا من لباسهم ومراكبهم وحسن زيهم ما كانوا أعدوه لذلك، ولعبوا بالبارود لعبا قضى منه الترك وغيرهم العجب، واعترفوا بأنهم لا قدرة لهم على ذلك اللعب ولا معهم من الفروسية ما يقاوم ذلك.

وأهل البلاد المشرقية كلهم يتعجبون من زى مخزن سلاطين المغرب مولانا إسماعيل وولده هذا مولاي عبد الله نصره الله وأدام وجوده، فقد تقرر عندهم من فروسيته وشهامته وحزمه وعزمه وضبطه وجوده ما أوجب تعظيمه فى نفوسهم كل التعظيم، ويقول منهم من علم من يشابه أباه فما ظلم، واحتفل الباشا بضيافة ولد السلطان مع أمه غاية الاحتفال، فما تركوا شيئاً قدروا عليه إلا وقدموه وداموا على ذلك مدة إقامتهم بطرابلس وكذلك فعلوا حال الأوبة.

قال: فقد قام بالحقوق. قيام الحر لا المرقوق. وقد قامت المترجمة بمكافأته على حسن صنيعه بأضعاف مضاعفة مما يستغرب وجوده فى تلك الديار من الطرف والتحف الملوكية، ولم تقصر فى إسداء الخير وأنواع التبرعات التى أوجبت استلفات الأنظار إليها فى تلك الفلوات سيان فى ذلك الغنى والفقر. والجليل والحقير. تقبل الله منها أعمالها. وأنالها من الخير آمالها هـ. بعضه باللفظ وبعضه بالمعنى.

ثم قال: خرجنا من طرابلس يوم السبت الثامن من شهر رمضان من السنة ونزلنا بقرية تاجورى، ثم من تاجورى للمسيل، ثم النقيرة، ثم لبدية، ثم الدفينة، ثم مصراته حيث مدفن أبى العباس أحمد زروق، ثم بوشعيب، ثم سرت، وهى كما قال البكرى فى مسالكة^(١): مدينة كبيرة على ساحل البحر لها نخيل وبساتين وفيها يقول:

يا سرت لا سرت بك الأنفس لسان مدحى فيكم أخرس
ألبستم القبح فلا منظر يروق منكم لا ولا ملبس^(٢)

(١) المسالك والممالك للبكرى ٦٥١/٢ - ٦٥٢.

(٢) فى المطبوع: «منكم ولا ملبس» وهو غير صحيح عروضياً، والتصويب من المسالك والأبيات من بحر السريع.

بخستم فى كل أكرومة وفى الخنا واللوم لم تبخسوا^(١)

ومن سرت هذه لشرف حسان، ثم التنعيم، ثم وادى مسعود، ثم مقطع الكبريت فوغبة، فبرقة المدينة الأزلية المسماة قديما أنطابلس - أى خمس مدن كما للبكرى، ثم من برقة للزجيحيفية، فكلود، فالنخيل، فالتميمى، فعين الغزالة، فالنبعة، فالدفنة فظهرة عزيز، فمطعن مقرة، ثم أبى المطامر، ثم الأخصاص، فأنبابة^(٢) وهى مدينة على ساحل النيل فى الجانب الغربى ثم مصر القاهرة.

وكان دخولهم مصر يوم الخميس التاسع عشر من شوال عامه ولم يبيتوا بمصر بل خيموا بالمحل المعروف بالبركة - بالراء المرققة - على عشرة أميال من مصر يجتمع فيه الركب المصرى، ومن بركة للدار الحمراء، ثم عجرود، ثم رءوس النواظر، ثم وادى التيه المحل الذى تاه فيه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر، ثم النخيل، فبئر الزعالك، فسطح العقبة عقبة أيلة القرية التى كانت حاضرة البحر وهى معدودة من كور مصر.

قال العبدرى: وقد ذكرها القاضى عياض فى مشاركته وغلط فيها، فحكى عن أبى عبيدة أنها مدينة على شاطئ البحر من بلاد الشام، وهى نصف الطريق من فسطاط مصر إلى مكة هـ، ثم ظهر الحمار ثم شراجة ابن عطية، فمعابر شعيب، فعيون القصب، فالبندر، فبيار السلطان، فالأزلام، فالإصطبل، ثم وادى لكره، فالخوراء، فالنبط، فالينبوع.

وبه قدم على السيدة المباركة صاحبة الترجمة الشرفاء أهل الينبع لأداء مراسم التهئة والتحية بسلامة القدوم، فأكرمت وفادتهم وأحسنن إليهم كعادتها المألوفة

(١) المسالك والممالك للبكرى - ص ٦٥١ - ٦٥٢.

(٢) فى المطبوع: «النبابة» تحريف.

وبالأخص مع الأشراف آل البيت المصطفى، وأهدت لهم كساوى من أرفع طرز، وأدت لهم مائتى مثقال ذهباً مطبوعة كانت توجه لهم أيام زوجها السلطان الأعظم مولانا إسماعيل، ومائة مثقال ذهباً منحة من عندها شطرها للشرفاء والشطر الآخر للشريفات.

ثم من الينيع، لبدر، فبروة القاع، فراغ، فقديد - سميت قديد لتقدد السيول بها - ومن قديد لعسفان، فوادى فاطمة.

ومن الغد نهضت المترجمة قبل الركب وواصلت السير إلى أن أناخت بذى طوى وصلت به المغرب واغتسلت وتهيأت لدخول مكة شرفها الله تعالى وعظمها، ودخلتها عشاء وذلك ليلة السابع من ذى الحجة الحرام، دخول جلالة ووقار فى محفل من الأجناد، وطافت طواف القدوم وبعد أيام التشريق نفرت إلى مكة وأتت بعمرتها.

وكانت مدة إقامتها بمكة تنزل كل يوم فى جنح الظلام. وتطوف بالبيت الحرام. وتبذل بغير حصر. وتعطى عطاء من لا يخشى الفقر. ودخلت جوف الكعبة. وأفاضت فى سدناتها ما علا للمغرب كعبه. وخلدت بمكة المشرفة ذكراً جميلاً. وبذلت عطاء جزيلاً.

وأوقفت أوقافاً ذات بال منها دار اشترتها من أولاد العلامة أبى محمد عبد الله بن سالم البصرى بباب العمرة أحد أبواب المسجد الحرام بما يقرب من ألف مثقال ذهب مطبوعة وحبتها على طلبة يهتمون كل يوم ختمة من القرآن، وعلى من يدرس صحيح أبى عبد الله البخارى وعينت ناظراً على الدار المذكورة.

وبعد أن قضت من الحرم المكى وطرها، وأدت من المناسك سنتها وفرضها، تآقت نفسها لطيبة الطيبة، وزيارة قبر خير العالمين فنهضت والسعادة تحرسها وعيون

الحفظ ترمقها، وكان خروجها من مكة المشرفة زادها الله شرفا ورفعة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذى الحجة والمبيت بوادى فاطمة، ومن الغد ارتحل الركب ووجهته المدينة المنورة على الطريق التي جاء عليها داراً داراً إلى بدر ومنه أخذ طريق الصفراء .

فكان المبيت بالموضع المسمى بالجديدة، فقبور الشهداء، فبير على، فوادى العقيق، فمهد الفضائل المشهورة ومقعد ألوية الدين المنشورة، مدينة المظهر الأعلى، والبرزخ الأسنى، مشرق الأنوار، ومعدن الأسرار، من له الفتح والختام، الحائز للمقامات العلية بالتمام، رسول رب العالمين، وسيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد ﷺ تسليماً كثيراً وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكان مقامها بالمدينة ثلاثة أيام بدار مفتى الشافعية بها أبى الفخرزين العابدين المنوفى، وبعد بلوغها الوطر من تلك البقاع الطاهرة عجلت الأوبة لدار مملكتها والكل لحسن الصنيع شاكر، ولها فى كل حين ذاكر .

بعض ما قيل فيها من الأمداح : من ذلك قول أبى عبد الله محمد بن على الحسينى الشافعى الطبرى إمام المقام الخليلى :

غنى على عود السعود هزارى	وشدا على الأوتار بالأوطار
والأنس طاب لنا بأوقات الهنا	بسلامة الحجاج والزوار
لا سيما بسلامة الست التى	حظيت ببيت الله والأستار
فلها المنى بوصال من قد جاورت	والأكرمون يرون حق الجار
فاحت بها أرجاء مكة رغبة	ومحبة من سائر الأدوار
وهى الحقيقة بالجلالة فى الورى	فجلالة الأضياف ليس بعار

والله قد ألقى عليها دائماً
وهى الحليمة والكريمة ما لها
ولها كمال وافر فى عفة
فالله يحملها بحسن رعاية
ويحفها بسعادة وسيادة
وعلى النبى وآله وصحابه
ما غردت ورق الرياض بدوحها
حسن القبول كسيمة الأخيار
فى الجود ثان مثل غيث جار
ولها حياء فاق فى المقدار
منه إلى مكناس بالأوطار
من كل سوء ماضى أوطارى
صلى وسلم ذو الجلال البارى
وترنمت فى سائر الأسحار

وفاتها: توفيت رحمة الله علينا وعليها بفاس فى جمادى الأولى عام تسعة وخمسين ومائة وألف، ودفنت بروضة الأشراف من المدينة البيضاء فاس الجديد.

١٣٨ - خليل بن صالح الخالدي.

قاضى مكناسة الحشمى، نسبة إلى الحشم إحدى قبائل عرب تلماس، نشأ بتلمسان ثم استوطن فاسا.

حاله: كان فقيها نحويآ آية فى صناعة التدريس، وبالأخص ألفية ابن مالك، ذا تودة لا يتزحزح ولا يتحرك حالة إلقائه الدروس، فصيح اللسان، حلو العبارة، يحصل ما ألقاه فى درسه تحصيلا عجيبا، مجلسه بالقرويين حفيلى يحضره نجباء أعيان طلبة وقته.

تولى نيابة القضاء بمقصورة القرويين عن قاضيها العلامة المشاور السيد عبد الله بن خضراء السلوى، ووقعت له رحمه الله فى مدة نيابته نواذر عجيبة يسخر

١٣٨ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع فى موسوعة أعلام المغرب ٨/ ٢٨٥٣.

منها صغار الولدان ومن له أدنى مسكة من الفقه، من ذلك أن رجلا طلب منه الإذن في إقامة بينة على بغلة له وجدها بيد الغير فقام فيها بالاستحقاق، فأمر أعوانه بجعل البغلة في محل خاص ويغلق عليها بحيث لا يراها الشهود لئلا يستند بعضهم على بعض في وصفها ونعتها، والحال أن عوام الأعوان فضلا عن الوكلاء يعلمون أن شهادة الاستحقاق لا تكون إلا على عين الشئ المستحق.

ومنها أنه ادعى لديه رجل على أخيه بأنه تقاعد له على حقوق انجرت له من ميراث أبيه، فطلب وكيل المدعى عليه من المدعى إثبات موث أبيه وعدة ورثته فحكم بإلغاء طلبه وعدم قبوله شرعا، وألزمه الجواب من غير مهلة أو عزل نفسه عن الدعوى.

ومنها أن ورثة هالك قاموا بغبن في دار اشتراها موروثهم استوفت صورتها شروط القيام بالغبن، وأدلو بفتوى شيخنا أبي العباس ابن المأمون البلغيشي أطال الله بقاءه تؤيد مدعاهم، ووافق على فتواه عالمان جليلان، فلما أدلو لديه بالفتاوى المذكورة حكم بإلغاء أولى الفتاوى التي هي الأصل معللا لإلغائها بأن صاحبها سافر للاتجار بالشام، وقبول الفتويين المعضدتين لها، وقد هجاه شيخنا المذكور بعدة قطع وقصائد من ذلك قوله:

وذى سفه قد خلا قلبه وقلبه من كل شئ على

تسمى خليلا بدون علوم وليس خليلا ولكن خلى

ثم رشح لقضاء الحضرة المكناسية وزرهون وما انضم لذلك بعد وفاة قاضيها أبي العباس ابن سودة المرى المترجم فيما سلف، وذلك عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، ولما حل بمكناس، لبست نحوياته حلة التناس، حتى حفظ عنه

فى خطبه اللحن الصراح من ذلك جزمه للمضارع المقرون بحرف التنفيس من قول سيدنا عمر بن عبد العزيز الوارد فى الصحيح فإن أعش فسأيينها ونبا عنه أنه لا يصلح أن يكون شرطا ولذلك وجب قرنه بالفاء لما وقع جوابا، اللهم إلا أن يجاب عنه بأنه سكنه تخفيفا على حد قراءة إن الله يأمركم بالجرم.

وقد حكى عنه بعض أهل العدل من شيوخنا أنه كان يوما بمجلسه فمر بجنابة فسأل من هى؟ فقيل له: امرأة نساء، فقال: وهل ينعت المفرد بالجمع؟ فقيل له: أين الجمع؟ فقال: نساء، فقيل له: نساء ليس بجمع وإنما هو مفرد وأنشد له المسئول على سبيل التمثيل قول البوصيرى.

من لحواء إنها حملت أحمد أو إنها به نساء

فقال ضرورة، فقيل له: وعلى أنه جمع فما المفرد؟ فقال: نفيسة فسكت المسئول وقال فى نفسه الآن آن لأبى حنيفة أن يمد رجليه.

ثم ختمت أعماله فى مكناسة بنكبة شنعاء وذلك يوم خلع السلطان المولى عبد العزيز ومبايعة أخيه السلطان المولى عبد الحفيظ وحشد الناس لذلك بالمسجد الأعظم وتم الأمر فيما حشدوا إليه على ما سنشرحه بعد بحول الله، قام بعض من لا خلاق له من الأوباش بإغراء ممن فى قلبه مرض وأعلن بسب المترجم، فقامت ضجة عظيمة فى المسجد وكان قصد موقد نار تلك الفتنة الفتك بصاحب الترجمة، فقامت فى وجه أولئك وعززنى من حضر ثم من أبناء عمى العلويين وفر الله جمعهم، وعضدنا عامل البلد حيث قلت له: إن لم تحسم هذه المادة حسما كليا فلا ريب أن هذه النار تجر ذيلها عليك وعلى كل موظف ووجيه حالا، ويتسع الخرق على الراقق، وتكون العاقبة وخيمة.

فأصغى لى بأذن واعية ووقع منه مقالى كل الموقع وقام لإطفاء تلك النار

بنفسه وأعوانه، وأدخلنا القاضى لمقصورة الخطيب وكلفنا به من يحرسه إلى أن يصل لداره فى حفظ وأمان.

ولما حيل بين أولئك الرعاع وبين ما يشتهون هجموا على بيت كان لولد القاضى المترجم بمدرسة العدول ودخلوه عنوة، ونهبوا ما فيه مما لست أذكره ولا أتيقن حقيقة ذلك، والذي يغلب على الظن أن ذلك مختلق.

ومن ذلك الحين لزم المترجم بيته ولم يخرج إلا يوم سفره لفاس، والذي تصدر للفصل بين الخصوم مكانه هو شيخنا ابن عبد السلام الطاهرى، ولم يزل على ذلك حتى أقر على الخطة واستقل بها حيث أعانه على ذلك قوم آخرون.

مشيخته: أخذ عن حامل لواء التحقيق فى النحو المشار له فيه بالبنان بين معاصريه الفقيه الخطيب السيد محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن التاودى بن سودة المرى المدعو الجلود، وعمن هو فى طبقة من محققى معاصريه.

الآخذون عنه: كثير منهم شيخنا الفقيه سيدى محمد النمشى، ومنهم الفقيه مولاى الشريف التاكناوتى، والفقيه السيد عبد الرفيع الإيرارى، وأخوه الفقيه السيد محمد ومن فى طبقة هؤلاء من النجباء المحققين.

مؤلفاته: وقفت له على رحلة منظومة نظما ساقط الوزن غير مرتبط لمعنى وقافية، وختمه للألفية، ومقامة فى قصة الفيل المهدي لسلطان المغرب مولانا الحسن من الدولة البريطانية عام تسعة وثلاثمائة وألف، فى نحو كراسة.

نثره: من ذلك قوله فى فصل من مقامته المشار لها يصف الفيل:

ذو جسم جسيم، وشكل وسيم، ظريف بهى، نبيل شهى، من أعظم الحيوانات وأبهر المصنوعات، منظره بديع، وهيكله رفيع، طويل الخرطوم، واسع الحلقوم، مبسوط الأذنين، حديد العينين، طويل الأنياب، أسنانه تبلغ ثلاثمائة سن

فى الاستيعاب؁ كأنه طود علاه سحاب؁ يحسبه الناظر إليه ربوة تمشى على ساق؁ أو سحابة أظلمت الآفاق؁ يهرول فى مشيته؁ ويسارع فى خطواته؁ كثيف فى المرائ؁ خفيف فى الوطأى؁ لو فاجأ عترة وسليكا؁ لعجزا عن الإقدام وهلكا؁ ليس فى سيره انزعاج ولا اضطراب؁ تحسبه جامدا وهو يمر مر السحاب؁ تفزع منه الطيور؁ وتتقى صدمته النسور؁ وخرطومه يتقلب تقلب الأفعى؁ يتلفف به الملتقم حين يدعى؁ ويسير به إلى الجهات الست؁ ويقلع به الصخور والأشجار قطع البت؁ ظهره عريض بسيط؁ وصوته رقيق غطيط؁ غليظ الجثة المرتقبة؁ قصير الجيد منقبض الرقبة؁ وعينه كأكسير زحل؁ إذ لم يمتز فيهما بياض من كحل؁ وقوائمه الأربع ويداه ورجلاه أجمع؁ كأجسام نخل باسقة؁ أو سوارى متناسقة؁ يخاله من لا يعرفه عند رؤيته؁ أن الأرض انقلبت بهرولته؁ أو زلزلت زلزالها؁ أو أن الله بذلك أوحى لها؁ أبصر من هدهد؁ وأسمع من قنفذ.

وفاته: توفى بفاس صبيحة يوم الاثنين التاسع عشر من ذى القعدة الحرام عام ستة وعشرين وثلاثمائة وألف؁ ودفن قرب ضريح سيدى أبى بكر بن العربى المعافرى خارج باب الشريعة المعروف باب محروق.
